السمات الأسلوبية
لمقدمة كتاب الاشتقاق لابن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ)

الدكتورة ابتهال كاصد ياسر
الزيدي
جامعة بغداد ـ كلية التربية للبنات
قسم اللغة العربية

قبل البدء بدراسة مقدمة أي كتاب لغوي أو نحوي قديم، لابدّ من الاستضاءة بقبس من حياة صاحب ذلك الكتاب، وهو الاطلاع على بعض جوانبها ليتسنى لنا فهم أسلوبه وأفكاره وتحديد اتجاهاته.

والكتاب المعني بهذه الدراسة هو كتاب (الاشتقاق) لمحمد بن الحسن بن دريد الأزدي ، يمني الأصل ، بصري المولد والمنشأ، توفي عام واحد وعشرين وثلاثمائة للهجرة . من علماء اللغة الذين كان لهم شأن في البصرة، عُرف بعلمه وحفظه اللغة ، فضلاً عن حفظه ونظمه الشعر(١).

وقد شهد لابن دريد بحفظه وسعة اطلاعه طائفة من العلماء منهم: أبو الطيب اللغوي(ت٣٥١هـ) الذي قال فيه: ((هو الذي انتهت إليه لغة البصريين، وكان أحفظ الناس وأوسعهم علماً، ومازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامها في صدر خلف الأحمر وابن دريد ، وتصدّر في العلم ستين سنة)) (٢). ووصفه القفطي (ت هـ) بأنّه : ((الإمام اللغوي الأخباري ... وأنّه كان رأس أهل العلم والمتقدم في الحفظ واللغة وأشعار العرب ، وهو غزير الشعر كثير الرواية))(٣).

وقد جمع السيد محمد بدر الدين العلوي شعره المتناثر في كتب تلاميذه ومعاصريه(٤). وحققه في ديوان مطبوع(٥)، ومن أشهر قصائد هذا الديوان (المقصورة) التي ذاع صيتها وشاعت شهرتها، وقد ألفها في المقصور والممدود، وعارضها كثير من الشعراء بعده. وهي تزيد على مائتين وخمسين بيتاً، شرحها

عدد من اللغويين والنحويين[٦].. له مؤلفات عدة في اللغة يتناول في أغلبها ظواهر من الحياة، فيفسرها لغوياً ويرفدها بالأقوال المأثورة والشواهد العربية منها على سبيل المثال: الأنواء، الخيل الصغير، الخيل الكبير، صفة السحاب، السلاح، السرج واللجام[٧]. ومن أشهر كتبه معجم جمهرة اللغة الذي ألفه على غرار معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي مع فارق الترتيب[٨]، وكتاب (الاشتقاق) الذي تناول فيه اشتقاق أسماء القبائل العربية ورجالها.

والاشتقاق: هو أخذ كلمة من كلمة أو أكثر مع تناسب بينهما في اللفظ والمعنى، وهو وسيلة من وسائل نمو اللغة، وهو أنواع: صغير وكبير وأكبر وكبّار[٩]..وقد ألف في هذا الموضوع غير واحد من القدماء، منهم على سبيل المثال: الأصمعي (ت٢٢٤هـ)[١٠]، وابن السراج (ت٣١٦هـ)[١١] .

نشر كتاب ابن دريد أول مرة بعناية المستشرق وستنفلد عام ١٨٥٤م ،ثم طبع عام ثمانية وخمسين وتسعمائة وألف، بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون في مطبعة السنة المحمدية في القاهرة، وأعيد طبعه عام ١٩٧٩م ، وهو كبير الحجم يتألف من جزأين في مجلدٍ واحد، بلغ عدد صفحاته سبعمائة وخمسة عشرة ، فضلا عن مقدمة المؤلف التي بلغت أربعين صفحة.. بُوب الكتاب على فصول، وضمّ كلّ فصل منها نسب قبيلة من قبائل العرب الشهيرة ، ويقسم على أجزاء متفرقة تبعاً لبطونها وأفخاذها وأشهر رجالها.. جاءت مقدمة ابن دريد لكتابه في أربع صفحات ونصف الصفحة ، موجزة من غير خلل، ومفصلة من غير إطالة ولا ملل . وللوقوف على أهم سماتها الأسلوبية لابد من الارتكاز على ركنين أساسيين هما:

١ ـ المضمون:

اعتاد أغلب المؤلفين القدماء أن يضمنوا مقدمات مؤلفاتهم ثلاثة أشياء : مدخل يمهد للموضوع ، وشرح لسبب تأليف الكتاب ، ووصف لمنهج ذلك المؤلّف ، وهو ما سار عليه المؤلفون المحدثون بعدهم .

واختص المدخل لدى ابن دريد بالحديث عن سنة من سنن العرب في الجاهلية ، وهي مذهبهم في تسمية أبنائهم وعبيدهم ، تلك الأسماء التي صارت فيما بعد موضع الطعن والانتقاد من الطوائف غير العربية التي نادت بأفكار الشعوبية المعادية للعرب .

ومن هذا المدخل ينتقل إلى بيان سبب تأليفه للكتاب ، وهو كثرة المطاعن التي وجهت للغة العربية من هذا الباب ، وباب تسمية العرب لأبنائهم وعبيدهم ، إذ إن الطوائف الشعوبية التي نشطت حركتها في عصر ابن دريد ، تسعى دوماً للبحث عن ثغرات في تراث الأمة العربية تطعنها فيه وتصفها من خلاله بالتخلف والبداوة والبعد عن الحضارة والتمدن(١٢) ، فأخذ طائفة من علماء اللغة العرب وغير العرب يتصدون لأولئك المنكرين المعادين للغة العربية ، حرصاً على لغة الدين الإسلامي وكتابه المقدس، ومنهم على سبيل المثال الجاحظ (ت٢٥٥هـ) في كتابه (البيان والتبيين) ، وابن قتيبة (٢٧٦هـ) في كتابه (كتاب العرب) ، فوضع ابن دريد كتابه هذا للأسباب نفسها فيقول : ((وكان الذي حدانا على إنشاء هذا الكتاب أن قوماً ممّن يطعن على اللسان العربي ، وينسب أهله إلى التسمية بما لاأصل له في لغتهم ... وعدّوا أسماء جهلوا اشتقاقها ، ولم ينفذ علمهم في الفحص عنها ، فعارضوا بالإنكار))(١٣) .

وينقل في مقدمته الحجة التي يحتج بها أولئك المعارضون ،وهي القصة التي يروونها عن الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت١٧٥هـ) حين سأل أبا الدّقيش، وهو رجل من فصحاء العرب المشهورين عن اسمه، فقال الرجل: لا أدري إنما هي أسماء نسمعها ولا نعرف معانيها، فوقف ابن دريد موقف العالم المتفحص الغيور على دينه ولغته، الذائد عن العلم وأهله بوجه هذه الرواية، فأنكرها وأنكر نسبتها إلى عالم جليل كالخليل، وإلى فصيح شهير كأبي الدّقيش(١٤)، فاتخذها سبباً لتأليف هذا الكتاب، يفسّر فيه أسماء الأعلام والقبائل العربية الشهيرة بكل فروعها وأجزائها وأسماء رجالها المشهورين، وهو يستبعد من البحث في هذه الاشتقاقات أسماء النبات والجماد ؛ لأنه غير معني بها ، فالعناية لديه بأسماء الأعلام أولاً ؛لأنه في ذكرها إطالة وولوجاً في ما لانهاية له.

وذكر في مقدمته نماذج من الأسماء التي شرح أصول اشتقاقها والتي بدأها بذكر اسم النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلّم)، ولم تكن هذه البداية غير مقصودة ، بل هي كذلك بدليل أنه كرّرها في كتابٍ آخر له هو المجتنى(١٥)، الذي ضمّنه مختارات من الأقوال المأثورة، وبدأه بأقوال الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام ، ويعلل توخيه هذا المنهج بقوله: ((إذ كان المقدّم في الملأ الأعلى))(١٦)، وهو أمر ثابت لامجال للشك فيه ، فالرسول محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) خاتم الأنبياء والمرسلين والمفضّل عليهم يوم الحساب أمام ربّ

العالمين، بدليل إعطائه حق الشفاعة لأمته، أمة المسلمين من بين سائر الأنبياء والصديقين .

وبعد ذلك انتقل إلى ذكر أسماء آبائه حتى عدنان، وذكر اختلاف النسّابين في تحديد النسب الصحيح ما بين عدنان إلى إسماعيل وإبراهيم (عليهما السلام). ثم ذكر مذاهب العرب في تسمية أبنائها ، وهي لديه على أقسام ، عدّدها ومثّل لكلّ منها أمثلة متعددة ، اقتصر فيها على ذكر الاسم الأول فقط من دون نسبه الكامل، ولم يكن ذلك إلا للاختصار والإيجاز اللائق بكل مقدمة . وهذه الأقسام كما أوردها هي[١٧] :

١- التفاؤل على أعدائهم مثل: غالب وغلاّب.
٢- التفاؤل لأبنائهم مثل: مُدرك ودرّاك.
٣- الترهيب لأعدائهم مثل: أسد وليث.
٤- التشبيه بما غلُظ وخشُن من أسماء الشجر مثل : طلحة وسَلَمة .
٥- تسمية الوليد باسم أول شيء يصادف أباه ساعة ولادته مثل: غراب وضبع.

وثمّة معيار مهم اتخذته العرب مذهباً في تسمية أبنائها، لم يلتفت إليه ابن دريد، هو المعيار الديني، إذ يسمّون عبدالله، وعبدشمس، وعبداللات، وعبدالعزى، وهم يعتزون بهذه الأسماء ويتفاخرون بتسمية أبنائهم بها، ويبدو أن ورع ابن دريد وعزوفه عن الإشادة بالأسماء المشركة بالله دفعه لإهمالها، لاسيّما وأنّ الرجل مشهود له بورعه وتقواه.

ويرى بعض المحدثين أن ابن دريد قد اعتمد في تقسيماته تلك على أساس نظرية الدلالة الصوتية للأسماء العربية، أي ارتباط أصوات الاسم بالمدلول الدال عليه[١٨]. واحتج لذلك بقول ابن دريد: ((هذيل من الهَذْل ،وهو الاضطراب))[١٩]، وقوله: ((وقضاعة من انقضع الرجل عن أهله إذا بعد عنهم ، أو من قولهم تقضّع بطنه إذا أوجعه))[٢٠].

والواقع أن استشعار العرب لقوة الرابطة بين الدال والمدلول لايقوم على أساس صوتي، وإنّما يقوم على أساس لغوي معنوي بحت، فلم يسمّوا غالباً وغلاباً لدلالة جذر(الغين واللام والباء) على قوة وقهر وشدة [٢١]، وإنما لأنّ غالب اسم فاعل يدلّ على ثبوت ودوام الغلبة للشخص المسمّى[٢٢]، ولأن غلاباً صيغة مبالغة تدلّ على زيادة الغلبة[٢٣].

وإن جاز لنا القول بصحة محاكاة الألفاظ الشديدة لمعانيها في مثل: حجر وصخر، فإن نائل ومدرك لاتبدو المحاكاة فيها جلية، ولذلك فإن المرجح هو اعتماد العرب الدلالة المعنوية للألفاظ أساساً للتسمية، فيسموا أبناءهم على وفق المعاني التي يرونها مناسبة بدليل رواية أبي حاتم السجستاني.

وهذا التقسيم الذي أورده في المقدمة مغاير لما جاء في متن الكتاب بجزأيه، ففي الجزء الأول بدأ بذكر اسم الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلّم) وآبائه الكرام وأمّهاته وأعمامه، ثم انتقل إلى أسماء العشرة المبشرين بالجنّة، ثم إلى أسماء عشيرة النبي من بني هاشم وعبد شمس وعبد الدار وعبد مناف ومضر وقبائل تميم بن مرّ ونهشل. وفي الجزء الثاني تحدث عن قبائل قيس بن عيلان وربيعة، ثم انتقل إلى أسماء قبائل اليمن من قحطان (موطن أهله وعشيرته)، وتحدث عن طيء والأزد والأوس والخزرج وهكذا حتى آخر أبواب الكتاب . فما جاء في المقدمة إذن هو اختصار لأبواب المتن، واقتصار على ذكر الأسماء العربية من غير نسبتها؛ لأن هدف الكتاب هو البحث في اشتقاق أصول الأسماء عامة.

وأشار إلى منهجه في شرح اشتقاق الأسماء بدءاً باسم القبيلة أولاً، ثم التدرج إلى أجزائها من بطون وأفخاذ، ثم إلى مشاهير رجالها وشعرائها وحكمائها... لكنّه لم يحدد الخطوات التي اتبعها في شرح كلّ اسم، فحين ننظر في المتن نجده يبدأ بذكر الاسم ، ثم معناه اللغوي أو المعجمي واشتقاقه الصرفي، ويذكر صيغه المختلفة ومعنى كلّ منها، إن وجدت، ثمّ يستشهد بما يوافق المعنى من شواهد، ويقدم في ذلك الآيات القرآنية على سواها، فإن لم يجد فمن الأحاديث النبوية الشريفة، فإن لم يجد فمن الأشعار والأمثال العربية .

من ذلك على سبيل المثال قوله: ((والمغيرة: الخيل تغير على القوم، وفي التنزيل(فالمغيرات صبحاً)[٢٤]. والمغيرة مفعلة من الغارة، وكان أصله مُغيرة، الغين ساكنة والياء مكسورة، فقلبوا كسرة الياء على الغين، وأسكنوا الياء، ويقال أغار الرجل على القوم يغير إغارةً ، والاسم الغارة، وموضع الغارة مُغار، إذا اشتققته من أغار يُغير، قال الشاعر:

أضمر بن ضمرة ماذا ذكر تَ من حرمةٍ أُخذت بالمغارُ))[٢٥]

ومنه أيضاً اشتقاق غطَفان ـ وهي قبيلة عظيمة ـ من الغطَف ،وهو قلة هدب العين[٢٦]، واسم قبيلة عبس من قولهم:عبَسَ الرجلُ يعبَسُ عُبوساً وعَبساً ،فهو

عابس، ومنه اشتقاق عبّاس[٢٧]. وهويقف أحياناً عند الاشتقاق الصرفي فيعلل ما فيه من تغيير وإعلال ويشرحه مفصلاً[٢٨].

ومن خلال تتبع بعض المواضع في كتابه نجد أن منهجه يكاد يكون موحداً في كتابه، ولايخلّ فيه بين المواضع المختلفة فهو يجمع فيه بين الوصف والتحليل والتعليل .

ومن سمات أسلوبه أيضاً أنه كان يبتعد عن التكرار، فإذا فسّر اسماً ومرّ ذكره ثانية، فلا يعيد تفسيره، بل يكتفي بقوله: وقد مرّ ذكره، وقد مرّ تفسيره.

ولم يخض فيما لاعلاقة له بالبحث اللغوي الاشتقاقي الذي هو محور كتابه، فلا يطيل الوقوف عند الأحداث التاريخية ولا القصص الاجتماعية ، ولا يعنى بقواعد النحو من حيث ذكرها وتتبعها في المواد اللغوية التي يطرحها ، ولم يعن بأسباب النزول في الآيات القرآنية. وإنما وقع جلّ اهتمامه على التفسير اللغوي أولاً، ثمّ الاشتقاق الصرفي ثانياً .

شواهد الكتاب:

كان للشواهد أثر بالغ في كتابه ، فهي تحتلّ حيزاً ليس بالقليل في تضاعيف تفسيراته اللغوية للأسماء ، ويمكن ترتيبها من حيث العدد على النحو الآتي :

١ـ الأشعار والأرجاز: التي زادت على ستمائة شاهد،وجمع فيها بين الشعر الجاهلي والإسلامي لشعراء كبار كامرئ القيس[٢٩]، وزهير بن أبي سلمى[٣٠] ، والأعشى[٣١] ، وحسّان بن ثابت[٣٢] .

٢ـ الشواهد القرآنية: تمثّل ابن دريد بست وثلاثين ومائة آية توزّعت على واحد وخمسين ومائة موضع ، ثلاث عشرة آية منها في موضعين، وآية واحدة تكررت في ثلاثة مواضع. ولم يكن في كل المواضع يذكر الآية تامة ، بل يجتزئها أحياناً، وقد يكتفي بمفردة قرآنية واحدة يتمثّل بها في تفسيره للألفاظ ، وهو في كل ذلك يفسر المفردات القرآنية تفسيراً موجزاً قد يتجاوز فيه الكلمة أو الكلمتين، إلا في مواضع قليلة فسّر فيها الآية كاملة[٣٣]. وهو يكتفي بذكر الوجه الذي يتفق مع معنى الاسم الذي يشرح أصول اشتقاقه ، فلا يتعداه ليذكر الوجوه المحتملة في تفسير ذلك الشاهد . من ذلك على سبيل المثال ، قوله : ((وقد سمّت العرب عبداً وعبيداً وعبيدة ومعبَداً، ويمكن أن يكون اشتقاق عبيدة ومعبَد من العَبَد، وهو الأَنَف من قول الله عزّ وجلّ: ((فأنا أول العابدين))[٣٤]: أي الآنفين الجاحدين))[٣٥] . فلم يذكر سوى هذا الوجه في تفسير الآية الكريمة .

٣ـ الأحاديث النبوية الشريفة: فقد استعان بها في شرح اشتقاقات الأسماء، وبلغ عددها ما يقارب اثنين وتسعين حديثاً ، ولم يكن يعنى برواية السند، ولا بضبط نص الحديث كاملاً، بل يأخذ منه ما يوافق المادة اللغوية التي يشرحها ، وقد يكرر روايته بألفاظ مختلفة[٣٦] .

٤ـ الأمثال العربية التي بلغت لديه حوالي ستة وسبعين مثلاً.

وإن كثرة الشواهد في هذا الكتاب إن دلّت على شيء فإنما تدل على قوة حفظه وسعة علمه باللغة ،وآثارها، وتراثها، وحرصه على إظهار الروح العربية[٣٧] .

ولم يرد في المقدمة ذكر لنوع الشواهد التي اعتمد عليها ، ولا لمنهجه في كيفية الأخذ بها . ولكن الاطلاع على متن كتابه يعلمنا أنه كان يتوخى البدء بالشاهد القرآني أولاً ، فإن لم يجد ما يوافق مادته اللغوية انتقل إلى الحديث ، فإن لم يجد انتقل إلى الأشعار والأمثال ، وقد يجمع بين كلّ تلك الأمثلة في تفسير اسم واحدٍ .. ولم يرد في المقدمة أيضاً ذكر للكتب التي استقى علمه منها ، ولا لعلمائه

الذين درس على أيديهم ، سوى في موضعين ذكر في أحدهما خبراً نقله عن أبي حاتم السجستاني[٣٨]، وهو من علماء اللغة المشهورين توفي عام خمسين ومائتين للهجرة، كان كثير الرواية عن أبي زيد الأنصاري (ت٢١٥هـ) ، والأصمعي (ت٢٢٤هـ)، ونقلت بعض المصادر أنه كان من شيوخ ابن دريد ، وقد اعتمد عليه اعتماداً كبيراً في تعلمه علوم اللغة، فروى عنه كثيراً[٣٩]. ويشهد لذلك متن كتاب الاشتقاق. ولأبي حاتم مؤلفات كثيرة لم يصلنا منها سوى الشيء القليل، على سبيل المثال: كتاب في الأضداد[٤٠] ، وآخر بعنوان: المعمرون والوصايا[٤١] .

وورد في المقدمة ذكر لأحد العلماء والرواة اسمه السكن بن سعيد الجرموزي[٤٢]، وهو من الذين أخذ عنهم بعض علمه وذكره في متن الكتاب في موضع واحد [٤٣].

ولم نجد في المقدمة مصطلحات لغوية أوصرفية كثيرة ، على حين انعدمت المصطلحات النحوية والصوتية، فما ورد فيها يمكن حصره بما يأتي :

١ـ الاشتقاق: وهو مصطلح لغوي اتفق على استعماله القدماء والمحدثون، وقد سبقت الإشارة إلى تفسيره في مقدمة البحث، وذكره ابن دريد في أكثر من موضع في مقدمته من دون أن يفسره ويوضح المراد منه، وكأن الأمر ليس ضرورياً؛ لأنه مصطلح معروف لدى أبناء عصره، ولم يكن هو أول من كتب فيه، فقد سبقه إليه كثيرون، فضلاً عن أن المصطلح واضح الفهم سهل المعنى.

٢ـ المكبّر والمحقّر[٤٤]: يريد بهما الاسم غير المصغر والاسم المصغر، وليس في العربية أسلوب للتكبير أو التعظيم المناقض للتصغير، وإنما هو دلالة تقع على المعاني والألفاظ من خلال التنكير والتعريف والسياق.

أما التحقير فهو التصغير، وهما مصطلحان صرفيان معروفان لدى علماء البصرة والكوفة على السواء. والتحقير: هو تقليل كثير أو تحقير عظيم أو تقريب شيء من شيء ، ويأتي على ثلاثة صيغ: فُعيل لتصغير الثلاثي نحو :كعب وكُعيب، وفُعيعل لتصغير الرباعي نحو: جعفر وجعيفر، وفُعيعيل لتصغير الخماسي ممن زيد عليه ألف أو واو أو ياء نحو: عصفور عُصيفير[٤٥]. وقد مثل ابن دريد لصيغة واحدة فقط هي (فُعيل) بالاسم دُقيش، وهو تطأطؤ الرأس ذلاً وخضوعاً.

٣ـ العدول: وهو الانتقال من صيغة إلى أخرى، مصطلح قديم مازال استعماله قائماً حتى الوقت الحاضر، ولكنه دخل ميادين واسعة في علوم اللغة والأدب الحديث ولاسيما في مباحث بنية اللغة الشعرية.

٤ـ بنات الثلاثة: أي الأسماء ذات الأصول الاشتقاقية الثلاثية ومثّل لذلك بالاسم: دَقَشَ.

٥ـ بنات الأربعة: أي الأسماء الرباعية المزيدة ، فأصلها ثلاثي زيد عليها حرف فصارت رباعية، وخصّ ابن دريد بالذكر المزيد بالنون ومثّل لها بالاسم: دنقش، وقد خصّ هذه الطائفة من الأسماء أيضاً بباب في آخر كتابه .

ولا يستشف من مقدمته فكرة أو تحديداً لاتجاهه النحوي ؛ لأنه كان عالم لغة وليس عالم نحو، بعيداً عن النزعة الفلسفية أو المنطقية التي شاعت في عصره، بدليل خلو مقدمته من كلّ ما يوحي إلى ذلك.

وبعد تنعُّمي بالإطلاع على هذا الكتاب النافع في مادته والممتع في طرحه والغني بعلمه ، لا أظن أن دارساً للغة العربية يمكنه الاستغناء عنه ، لما فيه من جلاء للمعاني المهمة والألفاظ العربية الغريبة ، فهو بحق ((ذخيرة علمية واعية))[٤٦]، بحسبانه مصدراً في ضبط الأعلام والقبائل ، فضلاً عمّا حفظه لنا من تراث أدبي ولغوي وتاريخي .

٢ ـ الأسلوب:

جاءت مقدمة ابن دريد بلغة سلسة مسترسلة عذبة الألفاظ لطيفة الوقع على السامع، سهلة الفهم ، فقد خلت من التصنع والتكلف ، على الرغم من أنه راعى فيها بعض السجع بإضفائه التناسق بين أواخر جملها ، والتناسب بين جرس حروف ألفاظها ، فجمع بين النحل والأجل والملل ، وبين الجهلاء والعمياء ، وبين بطونها وفرسانها وحروبها وأعدائها وأعشابها وسهلها.

وليس هذا غريباً أو جديداً على ابن دريد ، فقد شهدت له أغلب كتبه بهذا الأسلوب المؤنق . وعُدّ من النماذج المتميزة بين سابقيه ومعاصريه ، حتى قيل: إنه أول من أنشأ المقامات وجاء بديع الزمان الهمداني ليتمم ما بدأه ، ويضفي عليه من الحلاوة والطلاوة والاتفاق والصنعة ما جعله أكثر شهرة وصيتاً[٤٧].

وأول ما يطالعنا في مقدمته الاستهلال، الذي حرص المؤلفون عامة على العناية به واختيار ألفاظه بما يتوافق مع غرض الكتاب ويمهد لموضوعه في أول بوادره، وعادتهم في ذلك البدء بالبسملة أولاً، والصلاة على النبي محمد (صلى الله

عليه وآله وسلم) ثانياً، ثمّ حمد الله وذكر أنعمه ثالثاً، والولوج منها إلى صلب الموضوع.. يقول ابن دريد: ((الحمد لمن فتق العقول بمعرفته، وأطلق الألسن بحمده ...))[٤٨]، إذ استهل كتابه بحمد الله على نعمه ، واختار من بين تلك النعم ما يميزه عن سواه من المخلوقات ، وهو العقل ، وجعل أهم ما يستفاد من العقل هو معرفة الله والإيمان بحقيقة وجوده ، تلك النعمة التي تستوجب الحمد الذي لا ينقطع ؛ لأنها المعول عليها في معرفة سائر العلوم وهي النتيجة الحتمية لكل علم ومعرفة .

وجعل النعمة الثانية منح الله للإنسان القدرة على الكلام واختصاصه بها من دون سائر المخلوقات ، وجعل أعلاها مقاماً حمد الله والثناء عليه . إذ يقف الإنسان عاجزاً مبهوراً أمام عظمة الخالق فلا يعرف كيف يشكره إلا بالألفاظ العذبة والكلام الجزل الذي يتقرب به إلى الله ويستدر عطفه ويطلب رحمته . فكيف سيكون حاله إذا فقد هذه النعمة وخلا خلقه من هذه القدرة العجيبة .

ثم عاد ليؤكد ما بدأه فقال : ((وجعل ما امتنّ به من ذلك على خلقه كفاءً لتأدية حقه))[٤٩]. أي أن الله منح الإنسان هذه القدرة العجيبة لغاية عليا ، وليس عبثاً ـ حاشاه من ذلك ـ فلم يمنّ عليه بها إلا ليؤدي حق الله عليه ويقر له بالفضل والنعمة ، قال تعالى : ((وَجَعَلَ لكُم السَّمعَ والأَبصارَ والأَفئدةَ لعلَّكُم تشكُرون)) [النحل :٧٨] .

ثمّ خلص من كلّ ذلك إلى إخلاص الشهادة لله بإخلاص توحيده والصلاة على نبيه وإخلاص الإقرار بالنبوة له.. واختار هذه الألفاظ والأفكار لتكون مدخلاً للحديث عن لغة العرب ومنهجهم في تسمياتهم التي قوامها العقل واللسان، وهذا ديدن أغلب المؤلفين القدماء . إذ يبدءون كتبهم بالحديث عن فضل الله على الإنسان بأن منحه المنطق والكلام . ومثل هذا على سبيل المثال لدى الجاحظ في البيان والتبيين إذ بدأ مقدمته بالاستعاذة من الحصر والعي وساق لها من الشواهد المختلفة [٥٠]، وهما من عيوب النطق، والسلامة منهما نعمة من نعم الله وميزة في حسن البيان في الكلام.

ومما لفت نظري بعد الاستهلال قوله: ((كانت الأميون من العرب....)) إذ أنث الفعل بعد فاعل جاء على صيغة جمع المذكر السالم ، فوجدته ثقيلاً على اللسان غريباً على السمع، وحين بحثت وجدته مذهباً أجازه الكوفيون، إذ يؤنثون الفعل مع جمع المذكر السالم، على حين أجاز علماء البصرة تأنيث الفعل مع جمع

التكسير فقط[٥١].. وهو بلا شك نمط أسلوبي عمد إليه ابن دريد في حديثه متعمداً؛ لأنه تحدث عن العرب فيما يلي ذلك بأسلوب جماعة الذكور فقال: الذين.... اختصتهم جاهليتهم.... لهم.... أبنائهم، وهو لم يخرج فيه عن سنن كلام العرب؛ لأن له ما يؤيده في تراثهم اللغوي والنحوي.

وتدرج ابن دريد في المقدمة من فقرة إلى أخرى بأسلوب مترابط وأفكار متماسكة يأخذ بعضها بأسباب بعض حتى بلغ آخرها، فختمها بعبارة قصيرة ربّما لم تنسجم مع ما بدأه حين قال: ((وإنما اختصرنا منه ما يشبه ما قصدنا له))، فأراد الاختصار في متن كتابه ، ولم يكن كذلك، فهو كتاب فيه من التفصيل والاستطراد شيئاً كثيراً، ولكنه استطراد ذو فائدة جمّة وتفصيل ذو مقاصد فذّة، فلا نشعر معه بالملل ولا يتبادر إلى أرواحنا الكلل، بل نحب أن نستزيد في قراءته وننهم من منبع علمه.

ويمكننا القول إن مقدمته كانت معبرة عن مضمون الكتاب دالة على بعض ما قصد إليه وإن لم تحط بكل دقائقه.

قائمة المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم
ـ الاشتقاق: ابن دريد ،تحقيق:عبد السلام محمد هارون، مطبعة السنة المحمديّة، ١٩٥٨م.
ـ الاشتقاق: ابن السراج، تحقيق: محمد صالح التكريتي، بغداد، ط١، ١٩٧٣م.
ـ اشتقاق الأسماء: الأصمعي ،تحقيق: رمضان عبد التواب وصلاح الدين هادي، القاهرة، ١٩٨٠ م.
ـ البيان والتبيين: الجاحظ،تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة.
ـ الخصائص في علوم العربية: ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت.
ـ الشاهد القرآني في تآليف ابن دريد: حسين علي عزيز: أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، ١٩٩٩م .
ـ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: ابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (د.ت).
ـ الفهرست: ابن النديم، تحقيق: فلوجل، القاهرة، ١٣٤٨هـ .
ـ الكتاب: سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٣م .
ـ اللمع في العربية: ابن جني،تحقيق: حامد المؤمن، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٩٨٢ م.
ـ المجتنى: ابن دريد، تحقيق: السيد الندوي، حيدر آباد، ١٣٤١هـ.
ـ محمد بن دريد وكتابه الجمهرة: محمد شرف الدين الراجحي، الاسكندرية، ١٩٨٥م.
ـ المحمدون من الشعر والشعراء: القفطي، تحقيق: محمد عبد الستار خان، ط١، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، ١٩٦٦م .
ـ مراتب النحويين: أبو الطيب اللغوي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٥م.
ـ معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون دار الفكر، بيروت ، د. ت.
ـ المقتضب: صنعة أبي العباس محمد بن يزيد المبرد ، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، صدر بإشراف: محمد توفيق عويضة ، القاهرة ١٣٨٦هـ .

الهوامش

(١) الفهرست : ابن النديم ٩٧ ـ ٩٨ .
(٢) مراتب النحويين : أبو الطيب اللغوي ٨٤ .
(٣) المحمدون من الشعر والشعراء: القفطي ٢٧٩ .
(٤) أبو علي القالي ، وأبو القاسم الزجاجي في أماليهما ، ينظر : محمد بن دريد وكتابه الجمهرة: محمد شرف الدين
الراجحي ١٧٦ .
(٥) نشر عام ١٩٤١م ـ ١٣٦٥هـ .
(٦) يروى أن شروحها بلغت خمساً وثلاثين شرحاً ، وقد يبدو في هذا القول مبالغة لكنه يؤكد أنّ للمقصورة شروحاً عدة،
من أهمها : شرح ابن خالويه ،وشرح التبريزي ، وشرح الزمخشري ، وهي مطبوعة . ينظر : محمد بن دريد
وكتابه الجمهرة ١٩٩ .
(٧) ينظر : الفهرست ٩٨ .
(٨) طبع بتحقيق المستشرق كرنكو ، وطبع في حيدر آباد عام ١٣٣٤هـ . ثم أعيد طبعه بالأوفسيت في بغداد .
(٩) ينظر : الخصائص : ابن جني ٢ / ٣٣ ، والاشتقاق : عبدالله أمين ٣ ـ ٤ .
(١٠) اشتقاق الأسماء، بتحقيق رمضان عبد التواب وصلاح الدين هادي ، طبع في القاهرة ١٩٨٠م .
(١١) الاشتقاق ، بتحقيق محمد صالح التكريتي ، طبع في بغداد عام ١٩٧٣ .
(١٢) محمد بن دريد وكتابه الجمهرة ١٣٦ .
(١٣) الاشتقاق ٤ .
(١٤) المصدر نفسه
(١٥) طبع بتحقيق السيد الندوي في حيدر آباد عام ١٣٤١هـ .
(١٦) الاشتقاق ٤ .
(١٧) ينظر :المصدر نفسه ٥ .
(١٨) محمد بن دريد وكتابه الجمهرة ١٤٣ .
(١٩) الاشتقاق ١٧٦ .
(٢٠) الاشتقاق ٥٣٦ .
(٢١) معجم مقاييس اللغة : أحمد بن فارس (غلب) ٤/ ٣٨٨ .
(٢٢) ينظر: الكتاب: سيبويه ١/ ١١٠، ٤/ ٢٨٠، والمقتضب : المبرد ١/ ٧٤- ٧٥، ٢/ ١١٣.
(٢٣) ينظر : الكتاب ١/ ١١٠، والمقتضب ٢/ ١١٣ ، ١٦١/٣ .

(٢٤) العاديات : ٣ .
(٢٥) الاشتقاق ١٧ .
(٢٦) ينظر : المصدر نفسه ٢٦٩ .
(٢٧) ينظر: المصدر نفسه ٢٧٥ .
(٢٨) ينظر : المصدر نفسه ١٧ ، ٢٤٠ ، ٢٦٥ .
(٢٩) ينظر : المصدر نفسه ٩ ، ١١٢ ، ١٨٤ ، ٢٢١ ، ٤٤١ .
(٣٠) ينظر : المصدر نفسه ٤٦ ، ٧٦ ، ١٢٠ ، ٢٠١ .
(٣١) ينظر : المصدر نفسه ١٨ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٥٣ ، ٢٧٤ .
(٣٢) ينظر : المصدر نفسه ٩٤ ، ١٦٥ ، ٢٨٨ ، ٤٦٨ .
(٣٣) ينظر: الشاهد القرآني في تآليف ابن دريد : حسين علي عزيز ١٩ .
(٣٤) الزخرف :٨١ .
(٣٥) الاشتقاق ١١ .
(٣٦) ينظر : الاشتقاق ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ومحمد بن دريد وكتابه الجمهرة ١٤١ .
(٣٧) محمد بن دريد وكتابه الجمهرة ١٤٣ .
(٣٨) الاشتقاق ٦ .
(٣٩) الفهرست ٨٢ .
(٤٠) طبع مع كتابين آخرين بعنوان :ثلاثة كتب في الأضداد :للأصمعي والسجستاني وابن السكيت ، بعناية أوغنست هفنر في بيروت عام ١٩١٣م .
(٤١) طبع بتحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦١م .
(٤٢) الاشتقاق ٦ .
(٤٣) المصدر نفسه ١٤٥ .
(٤٤) المصدر نفسه ٤ .
(٤٥) ينظر : اللمع في العربية : ابن جني ٣٣٠ .
(٤٦) الاشتقاق : مقدمة عبد السلام هارون ٣٢ .
(٤٧) محمد بن دريد وكتابه الجمهرة ١٠١ ـ ١٠٢ .
(٤٨) الاشتقاق ٣ .
(٤٩) المصدر نفسه .
(٥٠) البيان والتبيين : ١١ .
(٥١) ينظر : شرح شذور الذهب في كلام العرب : ابن هشام الأنصاري ١٧٢ .